هل السلم ممكن

انشأ الدكتور ارثر شدول الكاتب الانكليزي مقالة في هذا الموضوع نشرها في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية افتتحها بقول افلاطون « ان كل ما يسميه الناس سلماً انما هو سلم بالاسم » . ثم قال ما خلاصتهُ

لقد جعل الناس عموماً والالمان منهم خصوصاً يعلمون الآن ان الوصول الى السلم اصعب جداً من الوصول الى الحرب . او ان عقد الصلح اصعب من نقضهِ . ولو كان عقدهُ سهلاً كما ارادهُ الناس لزال الخوف من الحرب او لقلّ ولنتج عن ذلك ازدياد الميل الى الحرب والاقبال عليها . فالذين ينادون بتسهيل وسائل الصلح مع عدو مائل الى الحرب يجهلون انهم بسعيهم الى تقصير زمن الحرب يسهلون العود اليها لانهم يزيلون اقوى الفواعل التي تمنع وقوعها . وميل الناس الى مقاومة العدو المعتدي وتأديبهِ حتى لا يعود الى الاعتداء هذا الميل يطيل زمن السلم ولو طالت بهِ بعض الحروب . وكلما زاد الضرر من اثارة الحروب ومن عدم الفوز فيها زاد خوف الناس منها وميلهم الى اجتنابها . ولا يكفي ان تقاوم من يعتدي عليك وتردعهُ عن العدوان لانهُ قد يرتدع هنيهة ثم ينتهز اول فرصة للايقاع بك بل يجب ان تقنعهُ امام عينيهِ ما هو افعل في نفسهِ من الامل بالتغلب عليك وهو الخوف من انك تقهرهُ وتنكل بهِ . ولذلك يسعى المعتدى عليهم الى الاقتصاص من المعتدي حتى يخاف من الاعتداء ويقلع عنهُ . ويختلف هذا القصاص باختلاف درجات الاعتداء وما فيها من الضرر . اما المعتدي فيسعى الى الصلح جهدهُ ليتمتع بما نالهُ بعدوانهِ اذا كان قد فاز او ينجو من العقاب اذا كانت الدائرة قد دارت عليهِ . وامثلة ذلك كثيرة في التاريخ ويستخلص منها كلها ان الذين يثيرون الحروب هم في الغالب اقل الناس رغبة في اطالتها

ثم اورد الكاتب اقوالاً لتقديس اوغسطينوس وغيره مفادها ان الناس قد يثيرون الحرب ويبالغون فيها قصد الوصول الى السلم . وقال ان الالمان يدّعون هذه الدعوى الآن في هجومهم الاخير زاعمين انهم قصدوا بهِ ان يحملوا الحلفاء على مذاكرتهم في امر الصلح بعد ان حاولوا الوصول الى هذا الغرض بالفواصلات

والطيارات والتنكيل بالاسرى وكل ما اقترفوهُ من وسائل الارهاب والسعي في القاء الشقاق بين الحلفاء . ولقد كانوا دائماً يمنُّون انفسهم بالوصول الى الصلح الذي يريدونهُ حتى ان امبراطورهم وعد جنودهُ في بداءة الحرب انهم يعيّدون عيد الميلاد في بيوتهم. وقد تكررت هذه المواعيد وتكرر سعي الالمان والنمسويين الى عقد الصلح فلم يفوزوا الاَّ في روسيا ورومانيا واما سائر الحلفاء فاقاموا على عزمهم وانضمَّ اليهم اكثر امم الارض

والامر بين وهو ان العدو المعتدي يرغب في الخروج من المأزق حينما يريد وامم المعتدَى عليه فيرفض ذلك كما رفضت اسبرطه ما عرضتهُ عليها اثينا وكما رفض شيبيو ما عرضهُ هنيبال . ويلوم بعضهم حكومات الحلفاء لانها رفضت ما عرضتهُ المانيا ويظنون انوقوف عند هذا الحد وذلك غاية ما تطلبهُ المانيا . وقد فعلت روسيا ورومانيا ما طلبتهُ المانيا فاذا كانت عاقبة الصلح عليهما . يقول دعاة الصلح اننا لو اشتركنا مع روسيا في عقده لكانت شروطهُ اصلح لها منها الآن ولكن فاتهم ان المسألة ليست مسألة شروط ولو كانت المانيا دولة عادية لسهل عقد الصلح معها بشرط او بغير شرط وسهلت مصالحتها وازالة العدوان ولكنها ليست كذلك كما هو واضح من اثارتها هذه الحرب ومن سيرها فيها . وهذا هو السبب الذي حمل دول الارض على الانضمام الى الحلفاء من الصين في اقصى المشرق الى شيلي في اقصى المغرب على ما بينها من اختلاف الاجناس. وهذا الحكم العام من امم الارض دليل على كرههم ما فعلهُ الالمان وغيظهم منهُ وهو حكم ادبي لا حدَّ لمفراهُ يجب ان يفهم الالمان الى الابد . فقد ادَّعوا انهم اثاروا هذه الحرب ليخلصوا امم الارض من ظلم الانكليز فبرأت بهم تلك الامم وانتصرت للانكليز

سنة ١٩١٤ كانت سبع ممالك تحارب الالمان وسنة ١٩١٧ انضم اليها ثماني ممالك اخرى ثم انضمَّ غيرها حتى يصح القول ان كل الامم قامت الآن على الالمان وشهرت الحرب عليهم او قطعت العلاقات السياسية معهم ما عدا ممالك اوربا الصغيرة التي لزمت الحياد خوفاً منهم. وقد فعلت تلك الامم ما فعلت لا حباً ببلجكا او بسربيا او فرنسا او بريطانيا بل لانها رأت ان سلف المانيا لا يطاق . واعظم هذه البلدان كلها الولايات المتحدة الاميركية التي نهضت نهضة واحدة وبادرت

الى النجدة . ولقد كان الاميركيون يكرهون هذه الحرب ويأبون خوض غمارها لعلمهم انهم لا ينالون منها غير الخسارة اذا خاضوها فاجتنبوها جهدهم وبذلت حكومتهم وسعها في اصلاح ذات البين بين المتحاربين . ولتعرّف الرئيس ولسن في هذا السبيل حتى عرّض نفسهُ للانتقاد. وكلنا يذكر ما اثارتهُ رسالتهُ التي ارسلها منذ سنة ونصف من اللغط هنا وفي فرنسا اما انا فقد فسرتها حينئذٍ تفسيراً آخر في هذه المجلة تفيت به ما فهمهُ غيري هنا وفي فرنسا . فان الرئيس ولسن كان اعلم من رجال حكومتنا بحرج الموقف وطباع الالمان وكان سفيرهُ في برلين يخبره بكل شيء وهو من اكثر الناس مراقبة واصحهم فراسة كما نعلم الآن ومع ذلك اصرّ الرئيس على حفظ احسن العلاقات مع المانيا ومعاملتها اشرف معاملة اما هي فاستخفت به حتى لم يبقَ امامهُ وامام الامة الاميركية الاّ الانتصار للحلفاء بعزيمة ماضية

من يتجاسر ان يستخف بما فعلتهُ الولايات المتحدة. من لا يرى انها حكمت بفعلها هذا حكماً عادلاً على ما ارتكبهُ الالمان . ان الذين يرغبون في عقد الصلح مع المانيا بالمذاكرة معها لا يبرئونها من اثارتها للحرب وخرقها لحرمة البلجيك ولكنهم يقولون ان الحرب اثرها الآن غير ما كانت تنتظرهُ فصارت اميل الى الاعتدال في مطالبها والوصول مع الحلفاء الى شروط معقولة لعقد الصلح . ومن هذا القبيل ما قالهُ لورد لنسدون في ٨ مايو الماضي فقد قال ما مفادهُ «لنفرض اننا وصلنا الى الصلح مع المانيا في الخريف الماضي بالمذاكرة معها فكيف كان الموقف الذي تكون قد وصلت اليهِ حينئذٍ — غرضها الاول فشلت فيهِ فشلاً تامّاً. مرّت عليها ثلاث سنوات وهي تحارب وتتحمل ويلات الحرب وضحاياها . اموالها المالية في اضطراب تام. خمسة ملايين من رجالها بين قتيل وجريح واسير . خرجت من بلجكا ومن فرنسا وفقدت جانباً من مستعمراتها . يقال ان خسائر مثل هذه لا تكون تأديباً كافياً لها اما انا فلم اقل ولم افتكر ولم اكتب شيئاً يمكن ان يفسّر بانني طلبت ان تصالح المانيا قبلما تتأدب »

لو قال لورد لنسدون انهُ لا يحسن رفض المذاكرة في الصلح مع المانيا بعد ان تكون قد تأدبت وطلبت من الحلفاء ان يصالحوها لكان قولهُ في محلهِ ولكن كون المانيا خسرت كذا وكذا ليس دليلاً على انها تأدبت والتأدب يقتضي اظهار

التوبة عمن وقع بهِ القضاص فيعترف بما ارتكب ويندم عليهِ ويتوب عنهُ ولم يفعل الالمان شيئاً من ذلك وانما كان طلبهم للصلح يختلف باختلاف مواقفهم الحربية بين الغلظة والاعتدال. ولقد كانوا اكثر اعتدالاً في الخريف الماضي منهُ الآن. ولكن ليس في ذلك اقل دليل على انهم ندموا على ما فعلوا وتابوا عنهُ وعزموا الاَّ يعودوا الى مثلهِ. وغاية ما في الامر انهم ارادوا ان يؤجلوا الى وقت آخر ما كانوا عازمين عليهِ الآن. فاذا رمى السارق شيئاً سرقهُ وهرب من وجهك لم يكن ذلك دليلاً على انهُ تأدب بل على انهُ خاف من التأديب. ومما يؤيد ذلك اختلاف الشروط التي عرضها الالمان فاذا اشتدَّت الازمة عليهم وضاقت حلقاتها عرضوا شروطاً معتدلة واذا انفرجت عادوا الى غلوائهم وغطرستهم. وقد عرف من الكمرلوتل هوس انهُ لما دعت المانيا الحلفاء في دسمبر سنة ١٩١٦ الى البحث في امر الصلح كان غرضها ان تملي هي عليهم الشروط التي تريدها لا ان تبحث معهم فيها

وقد اتضح الآن انهُ اذا عُقد الصلح ولم تترك المانيا مبادئها التي جعلتها تثير هذه الحرب فلا بدَّ من العود الى الحرب سريعاً. وعندي ان المانيا لم تترك مبادئها بل توسعت فيها وزادت بها تشبثاً كما هو ثابت من المنكرات التي اتتها في هذه الحرب من مثل الغدر والقسوة وانتهاك المحارم كأنها فرض لازم عليها وهي المنكرات التي جعلت العالم كلهُ يشمئز منها ويقوم عليها

فالغدر الذي نقضت بهِ عهود الامم امثلتهُ كثيرة ومنها ما كشفهُ الوزير لنسنغ الاميركي حديثاً وذلك ان المانيا وعدت وعداً اكيداً بعد حادثة السفينة سكس ان لا تعود الى حرب الغواصات لان اميركا هددتها بالانضمام الى الحلفاء ان فعلت. وبعد ذلك بستة اسابيع فقط طلب سفيرها في اميركا من وزارة الخارجية في برلين ان تخبره عن الوقت الذي عزمت ان تعود فيهِ الى حرب الغواصات حتى يخبر اصحاب السفن الالمانية التي في المياه الاميركية لكي يتلفوا آلات سفنهم قبلما تنشب الحرب بين اميركا والمانيا. فكان وعد المانيا بابطال حرب الغواصات وعداً كاذباً ارادت بهِ ان تعطى مهلة لاعداد العدد الكافي من الغواصات وكان سفيرها يعلم ذلك. ففرغ صبر اميركا حينئذٍ وعلمت انها تعامل دولة غدارة

لا قيمة لعهودها ومواعيدها . واذا أُمنت العهود وشاع الغدر بين الامم زالت الثقة وتقوضت اركان الحضارة وانتفت كل الوسائل التي توسلت بها الدول الاوربية لتقليل الحروب وتخفيف ويلاتها

وهناك امر آخر غير متعلق بتقليل الحروب وتخفيف ويلاتها ولكنهُ لا يقل عنها شأناً بل هو اسمى لانهُ مرتبط باشرف طبائع الناس . ولم توضع لهُ قوانين خاصة لان الفطرة السليمة تدل عليهِ وتوجبهُ وهو حفظ حرمة من يضيفك وينزلك في بيتهِ . لكن الالمان انتهكوا حرمة الضيافة فصار كل واحد منهم جاسوساً في البلد الذي هو نازل فيه — جاسوساً يسعى جهدهُ الى ابلاغ دولتهِ الغاية التي ترمي اليها وهي التسلط على العالم حتى ان سفراءهم كان عملهم الاكبر التجسس في البلدان التي يحلّون فيها على الرحب والسعة . وذلك خيانة من افبح الخيانات . لا يُذنب من السفير ان يفشي اسرار دولتهِ ويجاهر بكل ما يظنهُ . وقد يسيء استعمال الامتيازات التي يعطاها ولكن لم يفعل احد ما فعلهُ سفراء الالمان من الجري على خطة مرسومة لهم يراد بها خيانة البلاد التي هم فيها والتغرير بها خفيةً حتى تضعف ويسهل على المانيا التسلط عليها . قال فتال في كتابهِ الشرائع الدولية الذي طبع سنة ١٧٥٨ ما مفادهُ « ان من اقبح انواع الخيانة ان يتخذ السفراء حماية القانون الدولي لهم وسيلة لحفر الحفر والقاء الشباك في سبيل البلدان التي هم سفراء فيها فقصد التغرير بها وايصال الاذى اليها . ايجوز للسفير ما يُعد عيباً قبيحاً وخطة شنعاء في الضيف . ايحق للسفير ان يدس الدسائس للبلاد التي يقيم فيها ويعمل على خرابها ويفسد سكانها على حكومتهم وهو مستظلٌ بظل الحماية التي يحمى بها السفراء »

وقد علم الآن ان وزارة الخارجية الالمانية تجري على هذه الخطة جرياً منظماً حتى اذا لم تثق الثقة التامة باحد سفرائها استخدمت معهُ اناساً من اجرائها . ارسلت البرنس لخنوفسكي سفيراً الى لندن وهي تعلم انهُ رجل مستقيم لانهُ من اصل بولوني فيكون محل ثقة الحكومة الانكليزية فاستخدمتهُ كثيرة لاغراضها السافلة واستخدمت معهُ اناساً آخرين يرقبون الاحوال ويرسلون اليها التقارير ويمنعونهُ من التوفيق بين مصالح بلادهِ ومصالح البلاد الانكليزية . واستخدمت

مع الكونت برنستورف في وشنطون جماعة مثل تكسبرج الذي انتهك حرمة السفارة الاسوجية وحكومة الارجنتين ونفح لحكومتها ان تفرق المراكب ولا تنجي احداً من ركابها . اذا فضح سر رجل من هؤلاء الرجال يكلف ترك البلاد التي هو فيها ولكن رأس الثعبان في برلين لا يمس بسوء . فكيف يستطيع احد بعد الآن ان يثق بسفير من سفراء الالمان . اما في المانيا فلا احد يثق بغيره لانهم كلهم مجبولون على الدسيسة والوقيعة والنميمة . وهم وشأنهم من هذا القبيل ولكن اذا عُرفوا بهذه الصفات فما يكون نظر الناس اليهم . لا يحتمل ان ينظر احد بعد الآن الى سفراء الالمان الاَّ كآلات تعمل في الخفاء للاضرار بالبلاد التي هم فيها . والنظام الحالي في المانيا لا ينتظر بقاؤه ولكن النظام الذي يأتي بعده يسير في خطته . ولا دليل على ان الالمان عازمون على تغيير هذه الخطة وقد يزيدونها إحكاماً حتى يزيد انتفاع المانيا بها . وهم لا ينتقدون نظامهم الحالي لانهُ اخلَّ بحقوق الضيافة واساء الى الذين احلوا سفراءهم على الرحب والسعة بل لانهُ لم يف بمرامهم تماماً

ولا بد من ذكر امر آخر قبل ترك ما اظهرته هذه الحرب من سياسة المانيا وهو عندي من اقبح فعالها لانهُ يسهل الحكم ايها اقبح من غيره واعني به تصرفها في الحرب البحرية لانها دنست على اقدس تقاليد رجال البحر المرعية في كل العصور الاَّ عند الذين لا خلاق لهم . فان شعار القرصان كان الموت لاخفاء الخبر فجرى الالمان على هذه القاعدة فجعلوا كل غرقوا سفينة يسدون سبل النجاة على الذين فيها لكي لا يخبروا بفعلتهم . فاجمع بحارتنا على ان لا يرعوا لهم حرمةً في المستقبل وعزموا ان يصروا على ذلك ولا يطيعوا امراً يخالفهُ . وهم مستقلون في المحافظة على تقاليدهم . ويظهر لي ان الالمان غير مكترثين لقرار البحارة حاسبين ان شروط الصلح تنسخ ذلك وفاتهم ان شروط الصلح تضعها الوزارة واما قوانين البحر فخاصة برجال البحر وما من وزارة تستطيع ان تجعل رجال البحر يغيرون تقاليدهم ولو ارادت ذلك . واذا لم تنجح وسيلة من الوسائل في جعل الالمان يرعوون عن غيهم فان مقاطعة البحارة لهم وتصميمهم على ان لا يعملوا شيئاً من بضائعهم يأول الى خرابهم لان امنهم الوحيد الآن مبني على توسيع متاجرهم . فيحسن بهم ان يهتموا بهذا الامر الاهتمام الواجب

فالخطة التي اقرّ عليها البحّارة محدودة يراد بها ايقاع العقاب الصارم بالمتعدي ولكن هذا العقاب ليس هو كل ما يجب ان يقع بالالمان. وقد عبّر ساسة الاميركيين عن ذلك تعبيراً صريحاً جداً لان اختبارهم اقنعهم انهُ لا بدّ من اجبار الالمان على التوبة والندامة. فقد صبروا عليهم وعاملوهم باللطف والتؤدة فوجدوا ان هذه المعاملة حملتهم على التمادي في الشر والغدر وظهر ذلك اخيراً ظهوراً بيناً في معاملتهم لروسيا فراد الاميركيون اقتناعاً وتصميماً ووقف الرئيس ولسن بالامس حين مرّت سنة على دخولهم في الحرب وقال

« لقد قالت المانيا وكررت القول ان القوة وحدها هي الفيصل الذي يحكم هل العدل والسلام يتسلطان على امور الناس. هل مستقبل البشر موقوف على الحق كما يراهُ الاميركيون او على السلطة كما تراها المانيا. ولذلك فعندنا جواب واحد وهو القوة القوة الى اقصى ما يكون. القوة بلا حد ولا قيد. القوة المؤيّدة بالحق المعزّزة بالنصر هي التي تنتضي بيننا وتجعل الحق شريعة العالم وتدوس كل سلطة تعسفية »

وقال في الثامن عشر من شهر مايو في اجتماع جمعية الصليب الاحمر بنيويورك ما يأتي

« اننا لا نعترف عن الفوز في هذه الحرب الزبون بشيء من المخادعة في امر الصلح. واقول ولا اخشى لوماً انني امتحنت كل ما عُرض علينا في امر الصلح فوجدتهُ غشّاً وخداعاً يراد بهِ ان تطلق يد العدو في المشرق بنوع خاص لكي يدوخ البلدان ويجتاحها

« انظروا الى ما نحن فيهِ الآن فاننا ندعوه جمعية الصليب الاحمر الاميركية وما هو الاّ فرع من نظام دولي اعترفت بهِ كل دولة من دول الارض واقرّ جميع الناس على انهُ وسيلة للاسعاف والرحمة. لكن الجيش الالماني تلطخ بلطخة عار لا تمحى ابد الدهر لانهُ لم يرعَ جمعية الصليب الاحمر حرمةً مع ان الالمان انفسهم اشتركوا مع الذين قالوا ان هذه الجمعية لا تمس بسوء لانها مظهر من مظاهر الانسانية »

والمستر لنسنغ الذي يدير كفة السياسة الخارجية مع الرئيس ولسن ولهُ خبرة تامة بالحوادث الجارية ومغازيها قال في ١١ يونيو الماضي ما يأتي

« مهما كانت آراؤنا السابقة فقد عرفنا الآن الطبع البروسي وما فيه من الشر على ما ظهر في هذه الحرب. والذين ادركوا حقيقة هذا الطبع يقولون انهُ يستحيل ان يلتئم مع صلح عادل ترتبط به الامم . ان القوة المادية التي ليس لها وازع ادبي يجب ان لا ندعها بعد الآن اساساً للحقوق المتبادلة مهما كلفنا ذلك من التضحيات ومهما قضينا فيه من الزمن

« ان الحكومات التي اتجهت انيها دسائس الالمان ظنت على اخلاصها وحسن نيتها ان الحكومة الالمانية مثلها في الاخلاص وحسن النية فأخذت بالاشتراك التي نصبها لها الالمان فانهم لم يدعوا وسيلة من وسائل الخبث والمكر في سياستهم الخارجية. اننا نعترف بان الحرب الحربي في برلين خدعنا لاننا لم نتصور ان يقع شيء من ذلك في عهد العمران المسيحي واشراف الدولي . ولكنني واثق ان الامة الاميركية لا تلدغ من جحر مرتين ولا تؤخذ بعد الآن بالاشتراك التي نصبها الالمان في المكونة كلها

« والسبيل الوحيد لحجب الدماء وابطال الخراب الذي هو نتيجة لازمة عن الجنون المطبق المستولي على عقول الالمان — السبيل الوحيد لذلك ان نثبت للملا ان اسياد الالمان المتسلحين بكل قوة امبراطوريتهم وقوة الامم المتعبدة لها لا يملكون القوة المادية الكافية لاخضاع نوع الانسان وان آلة الشعب التوتوني آلة كاذبة وان الفلسفة الالمانية التي يدعي الالمان انها انستهم حللا يسمون بها على غيرهم انما هي من نتاج الغرور والخيلاء . والامر خطير جداً لان الوسيلة الوحيدة لذلك هي السلاح هي الحرب الحرب الدائمة الى ان يذل البروسيون المتغطرسون ويأس امبراطورهم وحزبهُ الحربي من نيل مآربهم — الى ان يرى الشعب الالماني أن رؤساءه الذين اخذت منهم القحة كل مأخذ غير مؤيدين بقوة الهية ولا قدرة الله طوع بنانهم . واذا لم ييأس الشعب الالماني من نيل ما مُني به فالصلح الذي يعقد معهُ لا يكون الاَّ هدنة وقتية لتعدهُ في غضونها المانيا والنمسا لحرب اخرى تثيرانها على الحرية والديمقراطية وتحاولان مرة اخرى التسلط على المكونة

(ستأتي البقية)